

نفسية الديكتاتور

الجزء الثاني

يسهل إستغواء الجماعات في أوقات أزماتها، ينقضّ الديكتاتور بدعايته على المجتمع المتأخر المتألم الضال في ضباب مشاكله وأزماته موهماً إياهم أنه يقوم بتضحيات هائلة يؤديها صابراً مكابداً، من أجل كراماتهم وسعادتهم واستنهاضهم من كبوتهم، ولكنه في حقيقة الأمر لا يريد أن يكون منقذاً ومخلصاً كما يدعي، بل أن ينتصر على الجماهير التي يستلبها عقلها القاصر بأساليب شعورته وسحره كما كان يفعل الكهان الأقدمون. الغرض من دعايته ليس إفادة الآخرين بل الانتصار عليهم ليضيعوا أكثر ويستسلموا لإرادته التي غالباً ما تكون علوية، أنها أسلوب من الحرب بين باحث عن الانتصار وباحث عن الهزيمة، أو بين مريض يعالج نفسه باغتصاب الآخرين ومريض يعالج نفسه باغتصاب الآخرين له، والديكتاتور ناشر الدعاية لا يريد أن يتحقق ما يدعو اليه، وإنما يريد أن يتحقق سلطانه وأن يعبر عن أهوائه بأعهر الأساليب. إنه يتكلم عن حرية الناس وكراماتهم والارتفاع بهم عن الغباء والاستغلال والخرافة والحاجة، وعن الآلام والضلالات مع أنه لو تحقق له كل هذا لسقط وفقد أسباب وجوده. ولما وجدت دعايته من يكرمها بالاستماع اليها والانقياد لها، عرفنا أنّ الداعية الديكتاتور لا يتواجد إلا لأن الذين يوجه اليهم دعاياته يتشوقون الأوهام والفكر الغيبي، ويستمرئون لذات تعذيب النفس ويعيشون دائماً عوارض تأنيب الضمير التي يغذيها لهم الفكر الديني بأنهم أولاد الخطيئة، وبأنهم خارجون عن مبادئ السراط المستقيم، ولذلك هم يستحقون كل ذلك العذاب المحيط بهم من كل جانب، بل هم يقنعون أنفسهم بأن ذلك العذاب هو جزء من عملية تطهير لهم ليعودوا الى أحضان خالقهم نظيفين كما ولدتهم أمهاتهم.

كل ذلك يجعلهم يستمرئون عذاباتهم ويعتبرونها قدرهم الذي سينفذ فيهم رضوا أم لم يرضوا فالأفضل لهم أن ينفذ وهم راضون مسلمون لينالوا أجراً عند حكاهم في الحياة الدنيا وعند خالقهم في الحياة الآخرة.

لكل هذه الأسباب نرى الديكتاتور مستعداً لأن يقاتل باليد واللسان لكي لا تتحقق معاني الشعارات الجميلة التي يدعو اليها، لأنها لو تحققت لبطل سحره وتبدد ضباب شعورته وغدا أثراً بعد حين، نستنتج من كل ذلك أنه لولا الآلام والمشاكل والتناقضات لما وجد الزعماء الديكتاتوريون، فهؤلاء حتماً لا يريدون مجتمعاً معافى فالمجتمع المعافى يقتلهم أو ينفيتهم. فالديكتاتور المدعي دائماً أنه المخلص محتاج دائماً الى أن يكون الناس ضالين متألّمين ومحاطين بالأعداء الخارجيين والداخليين والمشاكل والتعقيدات الاقليمية والدولية. إنهم كالأطباء المحتاجون دائماً الى وجود المرضى وإن كانوا يدعون محاربة الأمراض، والكهان المحتاجون الى وجود الإبلتس وإن كانوا يدعون رجهه ألف مرة قبل صياح الديك. إن أشدّ الناس كراهية لتحرر المجتمعات من الخوف والمشاكل والأخطار والغباء هم أولئك المتسلطون الذين لا تفسر دعاياتهم إلا على إنها تضحيات هائلة يقدمونها للجماهير لأنهم بمرتبة المخلصين المرسلين.

كمال يوسف سري الدين